

## حكايتي مع ثلاثة قادة تاريخيين من رفاق العمر حبيب صادق ومحسن ابراهيم ونديم عبد الصمد

إنهم ثلاثة من رفاق العمر. ناضلنا معاً وكافحنا كل منا من موقعه وفي طريقة ممارسته لأفكاره الاشتراكية. وتعود العلاقة بيني وبينهم في شروط مختلفة إلى مطالع خمسينات وستينات القرن الماضي. كان الأول بينهم نديم عبد الصمد الذي التقيت به بعد عودتي من العراق شيوعياً ومع جورج البطل وألبير فرحات في وداع المناضل الشيوعي فرج الله حنين. وكان فرج الله قد شارك في المظاهرات التي كانت تطالب بتأسيس الجامعة اللبنانية. وكان فرج الله يومذاك طالباً في الجامعة اليسوعية. اعتقل في المظاهرات وبقي في السجن لفترة من الزمن. خرج بعدها من السجن مريضاً من جراء ما واجهه في السجن ولم يعيش طويلاً. وكان الاحتفال بوداعه في عام ١٩٥١، العام الذي تأسست فيه الجامعة اللبنانية في صيغة دار عليا للمعلمين. وتحول فرج الله حنين إلى أول شهيد للجامعة وإلى بطل في النضال من أجل تأسيسها.

في ذلك العالم بالذات توطدت علاقتي مع الرفاق الثلاثة وعلى وجه الخصوص مع نديم عبد الصمد الذي طلب مني عندما دخلت الجامعة في العام الثاني لتأسيسها (١٩٥٢) في فرع الأدب العربي، وكنت قد انتخبت نائباً لرئيس أول رابطة في الجامعة بصفتي شيوعياً، طلب من أن أتقدم بطلب إنتساب إلى الحزب الشيوعي. إذ كنت يومذاك قد رفضت الانتساب إلى الحزب الشيوعي لأن قيادته قد جرّدت فرج الله الحلو من موقعه كرئيس للحزب بسبب اعتراضه على بيان للأحزاب الشيوعية يؤيد قرار تقسيم فلسطين بطلب من الاتحاد السوفياتي. فقد اعتبرت ذلك القرار مناقضاً لما كنت قد بدأت أتعلمه من فكر ماركس كأساس للشيوعية التي تعتبر أن الحرية بالنسبة للإنسان الفرد أياً كان موقعه هي مقدسة. وكان قد تضامن مع فرج الله الحلو عدد من المثقفين الشيوعيين كان في مقدمتهم رثيف خوري الذي كنت معجباً بأفكاره وتعزّفت إليه في عام ١٩٥٠. ذهبت إلى رثيف بعد أن ألح عليّ نديم عبد الصمد بضرورة الانتساب إلى الحزب، وأخبرته بما طلبه مني نديم. فطلب مني رثيف فيما يشبه الأمر بأن عليّ أن أنتسب إلى الحزب من دون تأخير. وعندما سألته كيف أنتسب إلى الحزب الذي يخونك ويفعل بك ما فعله بفرج الله الحلو. فأجاب علي الفور بأن ما تتحدث عنه هو لحظة تاريخية، ناضل أنت وأمثالك لإحداث التغيير في الحزب في الاتجاه الذي يعيد إليه ما أنا وأنت متشبثان به باسم الشيوعية في الفكر وفي الممارسة السياسية. فذهبت إلى نديم عبد الصمد وقدمت له طلب الانتساب إلى الحزب وضعت فيه بعض أفكار من دون إشارة إلى فرج الله ورثيف. ولم تمض أيام قليلة على تقديم طلب انتسابي للحزب حتى جاءتني الموافقة مرفقة بقرار تسليمي مسؤولية المنظمة الطلابية في الحزب. وتبين لي بعد فترة

قصيرة من الزمن أن نديم عبد الصمد الذي كان مسؤولاً عن المنظمة قد كلف بالذهاب إلى براغ ليكون أحد المسؤولين في قيادة اتحاد الطلاب العالمي.

لم يكد ينتهي العام الأول من دراستي في الجامعة حتى فوجئت بقرار من الحزب بإرسالني إلى بودابست لتمثيل الشبيبة الديمقراطية العربية في اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي.

وإذ أتحدث عن نديم في المرحلة الأولى من علاقتي به فإنني أرجئ الحديث عن المرحلة الثانية التي أصبح فيها قائداً في الحزب وأسارع إلى الحديث عن حبيب صادق الذي تعرّفت إليه في عام ١٩٥٣. ومنذ أن تعرّفت إليه كان حبيب قد اختار أن يكون صديقاً للحزب الشوعي خارج الانتظام في صفوفه. وقد تميّز حبيب منذ مطالع شبابه بسمات جعلته محبباً إلى أبناء الجنوب. وقد برز ذلك في الانتخابات التي ترشح لها ابتداء من عام ١٩٦٨ وصولاً إلى عام ٢٠٠٠. وقبل الحديث عما عبّرت عنه الأصوات التي تلقاها في الانتخابات أود أن أتوقف عند جانب آخر من شخصيته، جانب المثقف فيه. فقد كان في مطالع الستينات من الذين شاركوا في تأسيس اتحاد الكتّاب اللبنانيين مع حسين مروّة وأدونيس ومنير بعلبكي. ثمّ شارك مع مجموعة من المثقفين الجنوبيين في تأسيس المجلس الثقافي للبنان الجنوبي الذي تميّز بالنشاطات الثقافية التي قام بها. وهي نشاطات لم تقتصر على الجنوب وحسب ولا على لبنان وحسب بل طاولت بلداناً عربية أخرى. ولم يلبث حبيب أن أصبح منذ أواخر الستينات حتى هذه اللحظة من حياته أميناً عاماً للمجلس. وكان اختياره في هذا الموقع والتجديد المتواصل له فيه تعبيراً عن تقدير الهيئات الإدارية المتواصلة لدوره الأساسي في المجلس ولعلاقاته الثقافية الواسعة على الصعيدين اللبناني والعربي. وتشير نشاطات المجلس إلى الموقع الذي احتله في الحياة الثقافية اللبنانية. وفي ذكرى الخمسين لتأسيس المجلس حصل حبيب والمجلس معاً على جائزة مؤسسة الشاعر محمود درويش وأقيم بالمناسبة احتفال تحدث فيه عدد من المثقفين اللبنانيين إضافة إلى كلمة ألقاها المثقف الفلسطيني المرموق فيصل درّاج باسم مؤسسة محمود درويش وقدم حبيب وللمجلس الجائزة.

هذه السمات التي تميّز بها حبيب صادق في موقعه في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي استكملت بالموقع الذي اختاره واختير له قائداً سياسياً مستقلاً حاملاً معه في استقلاليته أفكاره الاشتراكية على طريقته. وكانت الانتخابات كما أشرت إلى ذلك قبل قليل هي العنوان الأساسي لهذه السمات الجديدة المضافة إلى سماته كمنقّف. دخل في الانتخابات في عام ١٩٦٨ وكنت مرافقاً له في العديد من نشاطاته. حصل على أصوات كثيرة من دون أن يحالفه النجاح. لكنه في انتخابات ١٩٧٢ نجح. غير أن سلطات ذلك الزمان لم تعترف له بالنجاح. وفي فترة لاحقة في التسعينات اعترف رئيس الوزراء الأسبق صائب سلام أمام شهود بأن حبيب نجح في انتخابات ١٩٧٢ وأسقط بقرار. وبين عام ١٩٧٢ و ١٩٩٢ ظلّ حبيب يمارس نشاطه الثقافي والسياسي.

وعندما ترشح في عام ١٩٩٢ للانتخابات نجح بأصوات عالية وصار نائباً حتى عام ١٩٩٦. ثم توالى ترشيحه للانتخابات في عام ١٩٩٦ وعام ٢٠٠٠ ونال أصواتاً كثيرة من دون أن يحالفه النجاح. وقرّر بعد ذلك التوقف عن الترشح ليتابع دوره في المجلس الثقافي كمهمة أحبها والتصقت به وصارت جزءاً أساسياً من حياته.

وعلى امتداد الفترة التي تعرّفت فيها إليه كنت رفيقاً له وصديقاً حميماً وما زلت. وألتقي به في نشاطات المجلس وأزوره في المنزل لنتحدث في أمور ثقافية وسياسية.

أما محسن ابراهيم فقد برز في أواسط الخمسينات كأحد مؤسسي حركة القوميين العرب التي كان الدكتور جورج حبش رئيساً لها. ثم جرت تحولات في الحركة كان محسن من أبطالها في اتجاه الاشتراكية كما صاغها الرئيس جمال عبد الناصر. وفي عام ١٩٦٥ شارك محسن باسم حركة القوميين العرب في تأسيس جبهة الأحزاب والشخصيات الوطنية اللبنانية بمبادرة من كمال جنبلاط وبرئاسته. كانت الأحزاب ثلاثة الحزب التقدمي الاشتراكي والحزب الشيوعي اللبناني وحركة القوميين العرب. أما الشخصيات الوطنية فكانت ثلاثة، النائب الجنرال جميل لحود والنائب معروف سعد ونهاد سعيد زوجة النائب الراحل أنطون سعيد. وكنت أنا وجورج حاوي اللذين كلّفنا بتمثيل الحزب الشيوعي في الجبهة. وفي ذلك الوقت بالذات بادرت حركة القوميين العرب لإجراء حوار مع الحزب الشيوعي اللبناني من أجل توحيد الحزبين وتأسيس حزب في صيغة فرع للاتحاد الاشتراكي الذي أسسه الرئيس جمال عبد الناصر. وجرت لقاءات بين الحزبين كنت مع جورج حاوي نمثّل الحزب الشيوعي، وكان محمد كشلي ومصطفى بيضون يمثلان الحركة. كان رأي حزينا في عدم التسرع في انصهار الحزبين وفي تشكيل تحالف بينهما بدلاً من ذلك. فرفض ممثلو الحركة وتوقفت اللقاءات.

ثم تحوّل محسن ابراهيم مع مجموعة من رفاقه في قيادة الحركة إلى الماركسية. وفي تلك المرحلة شارك مع بعض رفاقه في تأسيس منطمتين. الأولى منظمة تحمل اسم الاشتراكية والثانية حملت اسم منظمة العمل الشيوعي التي ظلّت مرتبطة باسمه وبموقعه في رئاسته لها حتى هذه اللحظة. وكانت العلاقة بين حزينا ومنظمة العمل في بدايات تأسيسها علاقة متوترة. غير أن العلاقة عادت وانتظمت في شكل طبيعي في المرحلة التي تلت تشكيل الحركة الوطنية في صيغتها الجديدة في السبعينات. وأصبح جورج حاوي من موقعه في الأمانة العامة للحزب الشيوعي ومحسن ابراهيم في الأمانة العامة في منظمة العمل الشيوعي أقرب اثنين فيما بينهما وفي علاقتهما مع كمال جنبلاط رئيس الحركة الوطنية. واستمرت تلك العلاقة خلال الحرب الأهلية وفي مقاومة الاحتلال الإسرائيلي. وأطلق جورج ومحسن من موقعيهما في السادس عشر من أيلول ١٩٨٢ جبهة المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الإسرائيلي من منزل القائد الشهيد كمال جنبلاط عندما قامت إسرائيل بغزوها للبنان. وشارك الحزبان مع أحزاب الحركة الوطنية في النضال تحت راية الجبهة في مقاومة الاحتلال.

وكان لحركة أمل في ذلك التاريخ أيضاً دور في مقاومة الاحتلال قبل تأسيس حزب الله في عام ١٩٨٥. وتمّ خلال ذلك النضال تحرير القسم الأكبر من الأراضي التي احتلتها إسرائيل وصولاً إلى الشريط الحدودي في الجنوب. كان ذلك في عام ١٩٨٥. وفي المرحلة التي تلت ذلك الانتصار بدأ نشاط منظمة العمل في الحياة السياسية يتراجع تدريجياً. وفي مطالع التسعينات بدأت المنظمة بقيادة محسن ابراهيم في مراجعة نقدية لتجربتها الفكرية والسياسية. ونشر ملخص لتلك المراجعة في كتابين في العام الماضي. وعبر محسن عن تلك المراجعة النقدية الجريئة بالكلمة التي ألقاها في الاحتفال الذي أقيم تكريماً لذكرى جورج حاوي بعد استشهاده في عام ٢٠٠٥. وإذ أشير إلى هذه المرحلة من العلاقات بين حزينا في مرحلتها فإنني أود أن أذكر باعتزاز علاقة الصداقة الحميمة التي ربطت بيني وبين محسن حتى هذه اللحظة. وتكررت الزيارات فيما بيننا وما تزال. ويهمني في هذا السياق أن أشير إلى السمات التي ميّزت شخصية محسن قائداً اشتراكياً وخطيباً مفوهاً وإنساناً نبيلاً.

في العودة إلى نديم عبد الصمد أشير إلى أنه بعد أن عاد من براغ من موقعه في قيادة اتحاد الطلاب العالمي ذهب إلى موسكو للدراسة. ثم عاد في أواسط الستينات إلى لبنان. في تلك الفترة كان الحزب الشيوعي يتحوّل بالتدريج إلى حزب مختلف عما كان عليه في السابق بعد خروجه من العلاقة التنظيمية مع الحزب الشيوعي السوري. في مطلع عام ١٩٦٦ أجرى نقولا شابي من موقعه أميناً عاماً للحزب جملة من التغييرات في الحزب قدّم فيها إلى مواقع مسؤولة في القيادة مجموعة من الشباب في اللجنة المركزية وفي المكتب السياسي. وكان نديم من بين الذين سعدوا إلى موقع عضو في المكتب السياسي. ويفعل هذه التقديرات الجديدة والجريئة التي برز فيها دور الشباب نضجت الشروط لإحداث تغيير أكبر مما كان قد حصل في سياسة الحزب في شتى المجالات. ولم تلبث أن قامت ثورة من قبل الشباب في الحزب كان نديم من أبطالها احتجاجاً على مواقف الحرس القديم في قيادة الحزب الذين كانوا يتلقون توجيهات من الحزب الشيوعي السوفياتي، بما في ذلك ما يتعارض مع الوضع اللبناني ومع الدور الطبيعي لحزينا كحزب شيوعي لبناني. واستمرت الثورة عامين انتهت بانتصارها. وتكرّس ذلك الانتصار في المؤتمر، الذي عقد في صيف عام ١٩٦٨. وقد أصدر المؤتمر مجموعة من الوثائق التي تعبّر عن استقلالية الحزب وعن التجديد الذي طرح خلال المعركة في كل ما يتصل بمواقف الحزب الشيوعي. واستمر الحزب كالسابق جزءاً من الحركة الشيوعية العالمية. وسرعان ما أصبح نديم واحداً من الأساسيين الذين لعبوا أدواراً بارزة داخل الحزب وداخل الحركة الوطنية لا سيما في العلاقات مع الفلسطينيين. إذ انتخب في أواخر عام ١٩٧٢ أميناً للسر في "الجبهة المشاركة في الثورة الفلسطينية" برئاسة كمال جنبلاط. وكان نديم من أكثرنا في القيادة في العلاقة مع الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية. وفي عام ١٩٨٧ انتخب في المؤتمر الخامس للحزب شريكاً لي في موقع نائب أمين عام للحزب

جورج حاوي. وبقينا في ذلك الموقع حتى المؤتمر السادس للحزب الذي عقد في عام ١٩٩٢. وتميّز هذا المؤتمر بالمراجعة النقدية للحرب الأهلية ولدور الحزب فيها. كما تميّز بالخطة السياسية والفكرية الجديدة التي اتخذها المؤتمر في ظل ما تولّد عن انهيار التجربة الإشتراكية. وفي عام ١٩٩٣ انتخب نديم في المؤتمر السابع الإستثنائي رئيساً للمجلس الوطني للحزب. واستمر في موقعه ذاك حتى المؤتمر الثامن للحزب في عام ١٩٩٩. وفي المرحلة اللاحقة للمؤتمر الثامن، وهي كانت مرحلة مضطربة سادت فيها انقسامات في الحزب، خرج نديم من الحزب ليؤسس مع الياس عطا الله الحزب اليساري الديمقراطي الذي انتخب فيه رئيساً. وتابع نشاطه باسم اليسار الديمقراطي لفترة من الزمن ثم غادره ليبقى مستقلاً من دون أن يمارس أي دور في الحياة السياسية حتى هذه اللحظة. وأشهد أن علاقتي مع نديم تجاوزت العلاقة الحزبية إلى علاقة صداقة حميمة تحمل صفة الأخوة. ويعرف القاصي والداني ممن ربطتهم بنديم علاقة سياسية أنه تميّز بسمات جعلته محبباً لكل من عرفوه، وفي مقدمتهم أنا صديقه التاريخي.

تلك هي حكايتي مع هؤلاء الثلاثة من رفاق العمر. ولهذه الحكاية فصول أتابع فيها علاقتي معهم كل منهم في الشروط التي اختارها لنفسه.